في ظلال السنة

"مثل النبي صلى الله عليه وسلم ومثل أُمَّتِه"

الدكتور
سالم بن عبد الغني الرافعي

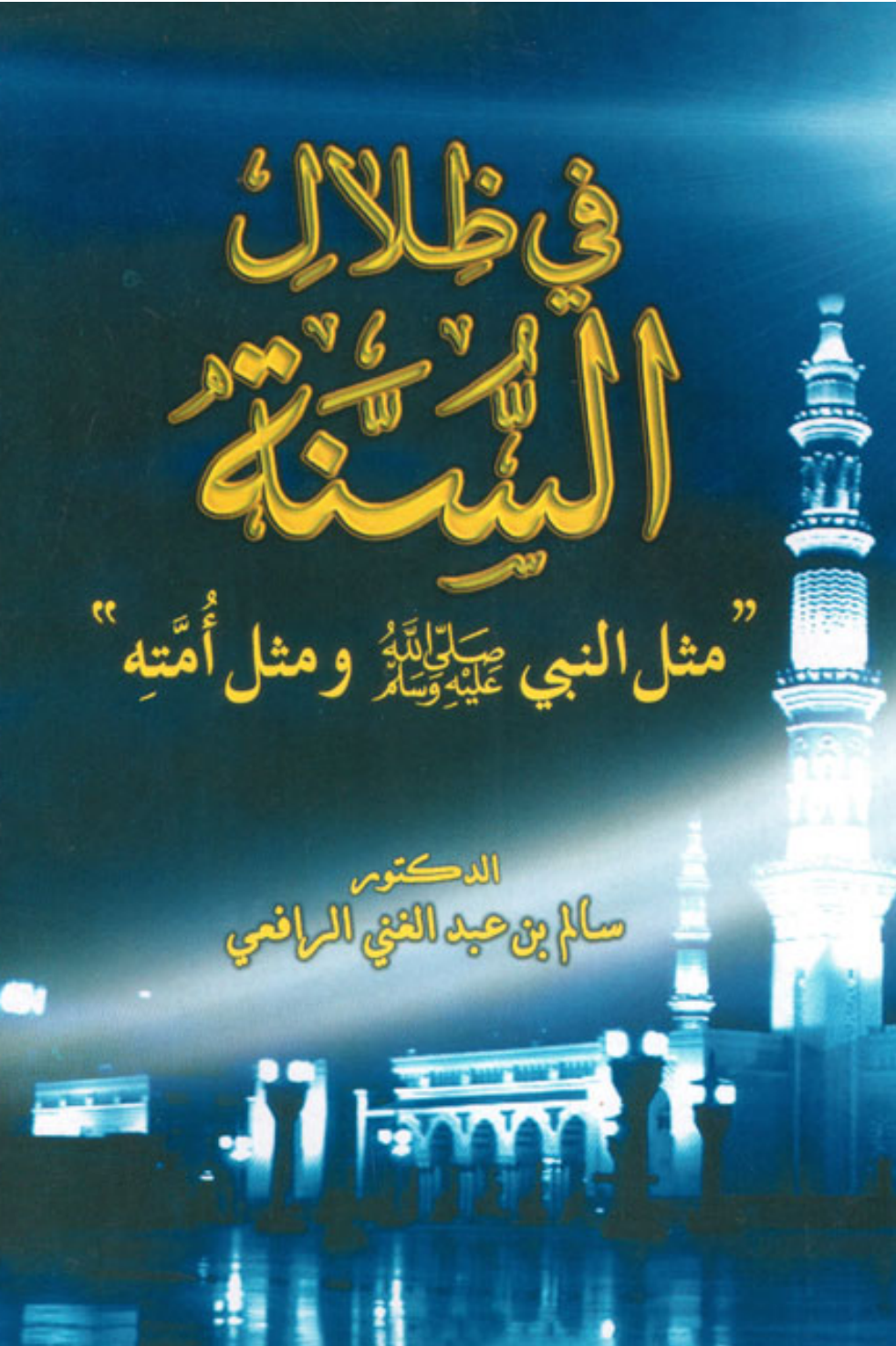

في ظلال السنة

بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة

في ظِلالِ السُّنة

الدكتور
سالم بن عبدالغني الرافعي

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

١

«مثل النبي ﷺ ومثل أمته»

المقدمة

اللَّهم إنا نحمدك حمداً يوافي نعمك ويكافي مزيدك، لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك. ونصلّي ونسلّم على عبدك ورسولك وصفوتك من خلقك محمد بن عبدالله صلوات ربي وسلامه عليه، **وبعد**..

فإن السنة النبوية ذَخَرت بكثير من الأحكام والمواعظ والعبر. وقد درج العلماء على مر العصور على تأليف المصنفات في شرح أحاديث الأحكام وغيرها من أنواع الحديث ليسهل على الناس الإفادة منها.

ومعلوم أن لكل عصر درجته في فهم العلوم واستيعابها، فما كان شرحاً يفهمه أهل عصرٍ، قد يستعجم على من بعدهم حتى يحتاجوا إلى شرح للشرح، مع ما يستجِدّ في الحياة من هموم وأوضاع وتغيرات.

لذلك حَسُنَ في رأيي أن يكون الشرح مناسباً لأهل كل عصر، يراعي مستواهم العلمي واللغوي، كما يتطرق إلى مشاكلهم المستجدّة، وليس إلى مشاكل عصرٍ سبق لم تعد ذات بال عندهم.

وقد بدأت هذه الخطوة في خطب الجمعة، إذ بدأت أشرح فيها جملة من أحاديث النبي ﷺ وأربطها بالواقع الذي نعيش فيه. وهذا أعظم أثراً في النفوس من تحويل خطب الجمعة إلى نشرات أخبار سياسية، تخلو من ذكر الآيات والأحاديث، ولا تزيد في معطياتها عن أي نشرة للأخبار، فتخرج بالخطبة عن موضوعها الذي شرعت لأجله وهو وعظ الناس وتعليمهم.

ثم رأيت جمع هذه الخطب في رسائل صغيرة عسى أن يعم نفعها، وسميتها: «**في ظلال السنة**».

والله أسأل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم.

متن الحديث

عن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «**هل رأى أحد منكم رؤيا؟**» قال: فيقص عليه من شاء. وأنه قال ذات غداة: «**إنه أتاني الليلة اثنان ملكان، فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رجلي للذي عند رأسي: اضرب مثل هذا ومثل أمته. فقال: إن مثله ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا إلى رأس مفازة ولم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به. فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل مرجّل في حلة حبرة فقال: أرأيتم إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء أتتبعوني؟ فقالوا: نعم. فانطلق بهم فأوردهم رياضاً معشبة وحياضاً رواء فأكلوا وشربوا وسمنوا. فقال لهم: ألم ألقكم على تلك الحال فجعلتم لي إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء أن تتبعوني؟ فقالوا: بلى، قال: فإن بين أيديكم رياضاً أعشب من هذه وحياضاً أروى من هذه فاتبعوني، فقالت**

طائفة: صدق والله لنتبعنه، وقالت طائفة: قد رضينا بهذا نقيم عليه»[(١)].

ألفاظ الحديث:

«**قوم سفر**» ـ بفتح السين وإسكان الفاء ـ أي: قوم مسافرون، قال ابن منظور في لسان العرب: السفر جمع سافر، والمسافرون جمع مسافر، والسفر والمسافرون بمعنى، أي: بمعنى واحد. وقال: وقد يكون السفر للواحد فيقال: رجل سفر وقوم سفر.

و«**المفازة**» هي: الصحراء والبرية القفر، وسميت الصحراء مفازة من الفوز مع أنها مهلكة تفاؤلاً، فإن العرب كانت تطلق على الشيء المهلك ما يضاده تفاؤلاً،

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (٣٩٧/٤) من حديث سمرة وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. كما أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٧/١) من طريق أخرى من حديث ابن عباس، وفي إسنادها علي بن زيد، وقد ضعفه الحافظ في الفتح (٢٥٧/١٣) من قبل حفظه. وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٦٠/٨)، وقال: «رواه أحمد والطبراني والبزار وإسناده حسن». كما صحح إسناده أحمد شاكر في شرحه لمسند أحمد (٢٤٠٣/٤)، لأن علي بن زيد ثقة عنده. قلت: فالحديث صحيح، لأن إسناده عند أحمد وإن تكلم فيه بسبب علي بن زيد، فإن إسناده عند الحاكم صحيح وليس فيه علي بن زيد.

كما أطلقوا على اللديغ، أي: الملدوغ من العقرب ونحوها، اسم السليم، تفاؤلاً بسلامته.

و«**رجل مرجّل**» من الترجّل والترجيل وهو: تسريح الشعر وتنظيفه وتحسينه.

وقوله: «**حلة حبرة**» الحلة عبارة عن ثوبين، قال الأزهري: ومما يبين ذلك حديث عمر أنه رأى رجلاً عليه حلة قد ائتزر بأحدهما وارتدى الآخر، فهذان ثوبان. والحبرة ـ بكسر الحاء وفتحها مع فتح الباء والراء ـ: ضرب من برود اليمن منمّر.

و«**الحياض الرواء**» ـ بفتح الراء والمد ـ هي: الحياض ذات الماء الكثير، وقيل: العذب الذي فيه للواردين ريّ، كما في لسان العرب.

معنى الحديث:

في هذا الحديث العظيم بيان مثل النبي ﷺ ومثل أمته.

وكان عليه الصلاة والسلام يكثر من ضرب الأمثال لما فيها من مزيد البيان، فإن الحقيقة التي يراد بيانها إذا رسمت معالمها على شكل صورة حسية كان ذلك أعمق في فهمها وأقرب إلى رسوخها في الأذهان والعقول.

قال الأصبهاني: لضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء النظائر شأنٌ ليس بالخفي في إبراز خفيات الدقائق ورفع الأستار عن الحقائق، تريك المتخيل في صورة المتحقق، والمتوهم في معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد(١).

وهذا المثل يرسم لنا صورتين:

الصورة الأولى لقوم مسافرين لم يُحسنوا تقدير الأمور، فانطلقوا في صحراء مقفرة بزاد قليل لم يلبث أن نفد منهم أو كاد، فسقط في أيديهم ووقفوا في عمق الصحراء حائرين، إذ لم يبق معهم من الزاد ما يبلغهم منتهى سفرهم، ولا ما يمكّنهم من العودة. وبينما هم على هذه الحال من الحيرة والقلق واليأس من النجاة إذ جاءهم رجل بثياب كريمة وصورة حسنة، تدل هيئته على تمكنه، وأنه لم يقع فيما وقع فيه القوم من حيرة وضياع، فبشرهم بالنجاة مما هم فيه، والورود بهم على واحة قريبة يتمتعون بريّها وبهاء منظرها، على شرط أن يتبعوا سبيله ولا يختلفوا عليه، فهو الخبير بالطريق والحاذق بمعرفتها.

(١) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي (١٣٢).

ولما رأى القوم عذب هيئته، وسمعوا حسن بشارته، وأدركوا أنهم لو مكثوا على حالهم لهلكوا لا محالة، بادروا إلى الاستجابة لأمره وأعطوه ما سألهم من عهد.

وكان صادق الوعد، فما هي إلا مراحل يسيرة ساروا بها معه حتى وصلوا إلى واحة عذبة، لا تختلف عن الوصف الذي وصفه لهم شعرة واحدة، كأنما كانت مبسوطة أمام عينيه حين وصفها لهم ووعدهم إياها. فما إن وقع بصرهم عليها حتى ارتموا في جنباتها يتنعمون بفيئها وظلالها.

فألقت عصاها واستقر بها النوى
كما قرّ بالإياب المسافر

وهذه الصورة أتت على رسم حال العرب قبل الإسلام لم تظلم منه شيئاً، ولو استنطقت كل وصف أو أرسلت قلمك لتستقرئ أحوال العرب قبل الإسلام، لما استطعت أن تجلو الحقيقة كما أجلتها هذه اللوحة التي رسمها من أوتي جوامع الكلم ﷺ.

فالعرب قبل الإسلام كانوا في شر حال. كانوا أمة متباغضة تتناوشها الحروب القبلية، إن خبت حرب

تسعّرت أخرى. ولم يكن لاندلاع الحرب عندهم أسباب وجيهة، بل تكفي أدنى شرارة حتى تقوم حربٌ ضروس لا تبقي ولا تذر.

وكانوا أمة ممزقة الأوصال، لا وزن لهم بين الأمم ولا يُعبأ بهم، مما أطمع بهم دول الجوار فتنافست على استعمارهم.

وكانوا أمة جاهلة تتجارى بهم الأهواء والعصبيات، ينصبون أصناماً صنعوها بأيديهم ليعبدوها، ويحرمون من عند أنفسهم ما يستطيلون به على رقاب بعضهم. فكانوا في ضعفهم وضياعهم وتفرقهم لا مستقبل لهم ولا قيام لهم، ينتظرون أن يفني بعضهم بعضاً أو تأكلهم الأمم من حولهم، شأنهم شأن أولئك النفر المسافرين الذين انقطع زادهم في وسط الصحراء وجلسوا ينتظرون الهلاك.

فبينما هم على هذه الحال اليائسة إذ بعث فيهم رجل، هو في الذروة العالية نسباً، وفي القمة السامقة خُلقاً، وهو محمد ﷺ، الذي سموه بأنفسهم: «الصادق الأمين» قبل بعثته إليهم، لما خبروا فيه من الصدق والأمانة. وهو المقصود في المثل بالرجل المترجّل ذي الحلة الحبرة، فإن العرب تكني بالثياب الحسنة عن

مكارم الأخلاق، لأن الصفات الكريمة تجمل صاحبها كما تجمله الثياب الحسنة، حتى قال حسان بن ثابت:

لو لم تكن فيه آيات مبينة
كانت بديهته تأتيك بالخبر

فدعاهم ﷺ إلى الإيمان بالله واتباع رسوله، وبشرهم إذا سلكوا طريقه بعز الدنيا قبل عز الآخرة. وعز الدنيا هو المشار اليه في المثل بالرياض المعشبة والحياض الرواء.

وتمثل وعد رسول الله ﷺ لهم بعز الدنيا إذا اتبعوا سبيله في مناسبات عدة منها:

ما رواه ابن إسحاق في السيرة حين عزم الملأ من قريش على قتل النبي ﷺ، واجتمعوا على بابه يرصدونه متى ينام حتى يثبوا عليه، وذلك قبيل هجرته بقليل، قال: حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي قال: لما اجتمعوا له وفيهم أبو جهل بن هشام، فقال وهم على بابه: إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح، ثم بعثتم من بعد موتكم، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها. قال: وخرج عليهم

رسول الله ﷺ، فأخذ حفنة من تراب في يده ثم قال: «**أنا أقول ذلك، أنت أحدهم**»[١].

وفي مناسبة قبل هذه، رواها أيضاً ابن إسحاق، لما اشتكى أبو طالب وبلغ قريشاً ثقله، مشى أشرافهم إلى أبي طالب وكلموه فقالوا: يا أبا طالب إنك منا حيث قد علمت، وقد حضرك ما ترى وتخوفنا عليك، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك، فادعه فخذ لنا منه وخذ له منا ليكف عنا ولنكف عنه، وليدعنا وديننا ولندعه ودينه. فبعث إليه أبو طالب فجاءه فقال: يا ابن أخي هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليعطوك وليأخذوا منك.

فقال رسول الله ﷺ: «**يا عم كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم**»، فقال أبو جهل: نعم وأبيك وعشر كلمات. قال: «**تقولون: لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه**»[٢].

فآمن بدعوته من وفق للسعادة، وعجل الله لمن اتبعه عز الدنيا مع ما أعد لهم من كرامة في الآخرة. فما

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/٤٨٣).

(٢) السيرة النبوية لابن كثير (٢/١٢٣).

هي إلا سنوات قلائل، ليست شيئاً يذكر في حياة الأمم، حتى استقام الأمر له ولمن اتبعه، ففتحت لهم البلاد وفتحت قبلها قلوب العباد. وأصبحوا أمة يحسب لها حساب بين أمم الأرض، ويهابها القاصي والداني. وفتح الله عليهم جزيرة العرب بتمامها، وذلت لهم خزائن كسرى وقيصر.

وكان فتح القلوب لهم أعمق أثراً من فتح البلاد، فما أن ذاق الناس طعم الإيمان وخالطت بشاشته القلوب حتى تشبثوا به وآثروه على كل شيء، وصاروا به أمة موحدة في عقيدتها ومشاعرها وسلوكها، وضربوا للأجيال من بعدهم أروع صورة لمعاني الأخوة في الله، ورسموا بأعمالهم أجمل لوحة للمجتمع الفاضل الذي تغنى به الفلاسفة الأوائل دون أن يرسوا على شاطئه، ويسعى العالم اليوم عبثاً لتحقيق ما وصلوا إليه. وترك هذا الفتح في الدنيا أثراً لا يزال الغرب حتى اليوم يعجب له ولا يدري كنهه ولا أسراره.

ونستطرد الآن إلى ذكر بعض النصوص التي ذكرت حال العرب قبل الإسلام، وحالهم بعد الإسلام، لعل الذين تغنوا بالقومية العربية مجردة عن هذا الدين يفيقوا من غيّهم ويصحوا من غفلتهم.

ففي القرآن الكريم وردت آيات تصور تلك النقلة المباركة من حال الضعف إلى حال القوة.

يقول تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾[1]. روى ابن جرير عن التابعي قتادة بن دعامة السدوسي في تفسير هذه الآية أثراً قال فيه: كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلاً، وأشقاه عيشاً، وأبينه ضلالة، وأعراه جلوداً، وأجوعه بطوناً، معكومين على رأس حجر بين الأسدين: فارس والروم، لا والله ما في بلادهم يومئذٍ من شيء يحسدون عليه، من عاش منهم عاش شقياً، ومن مات ردى في النار، يؤكلون ولا يأكلون، والله ما نعلم قبيلاً يومئذٍ من حاضر الأرض، كانوا فيها أصغر حظاً، وأدق فيها شأناً منهم، حتى جاء الله عز وجل بالإسلام، فورثكم به الكتاب، وأحل لكم به دار الجهاد، ووضع لكم به من الرزق، وجعلكم به ملوكاً على رقاب الناس، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا نعمه، فإن ربكم منعم يحب الشاكرين، وإن

(١) آل عمران: ١٠٣.

أهل الشكر في مزيد الله، فتعالى ربنا وتبارك[١].

ويقول تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾[٢].

وفي السنة الشريفة مرت مناسبة ذهل فيها بعض الصحابة لوهلة عن الخير الذي ساقه الله إليهم بفضل هذا النبي العظيم، فقام ﷺ يذكرهم بالحال التي كانوا عليها وبما آل إليه أمرهم.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عبدالله بن زيد بن عاصم قال: لما أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حنين، قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئاً، فكأنهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس فخطبهم فقال: «**يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضُلالاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألّفكم الله بي؟ وكنتم عالة فأغناكم الله بي؟**»، كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمنّ. الحديث[٣].

---

(١) تفسير الطبري (٣/٣٧).

(٢) الأنفال: ٢٦.

(٣) أخرجه البخاري في المغازي: باب غزوة الطائف (٤٣٣٠) ومسلم في الزكاة: باب إعطاء المؤلفة قلوبهم (١٠٦١).

وعرضت مناسبة أخرى أظهرت ما كان عليه الناس في أول الأمر من فقر وخوف، وكيف استبدلوا به بعد ذلك عزاً ومنعة.

روى البخاري في صحيحه عن عدي بن حاتم قال: بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل، فقال: «**يا عدي هل رأيت الحيرة؟**» قلت: لم أرها وقد أنبئت عنها. قال: «**فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله**». قلت فيما بيني وبين نفسي: فأين دعّار طيئ الذين قد سعروا البلاد؟ «**ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى**»، قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «**كسرى بن هرمز. ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحداً يقبله منه**» الحديث[1].

فهذا الحديث يجلي لك الصورة التي كان عليها الناس قبل الإسلام وفي أوله من فاقة وهي الفقر، وخوف بسبب قطّاع الطرق، وكيف استبدلوا بعد ذلك بالغنى والأمن، لدرجة أن الظعينة وهي المرأة تسافر

(١) أخرجه البخاري في المناقب: باب علامات النبوة في الإسلام برقم (٣٥٩٥).

وحدها من الحيرة إلى مكة المشرفة لأداء المناسك دون خوف أو وجل. وكل هذا في فترة وجيزة من الزمن لم تتعد العشرين سنة.

وهذا تنجيز لوعد الله للفئة المؤمنة بالأمن والتمكين في الأرض بعد الخوف والاستضعاف، كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[1].

وفي السيرة الشريفة وردت آثار عن الصحابة في مواطن مختلفة تبين حقيقة هذه النقلة وأهميتها.

«لما هاجر بعض الصحابة إلى الحبشة فراراً بدينهم لم يرضِ ذلك قريشاً، فحاولت الايقاع بهم عند النجاشي واستعداءه عليهم، فأرسلوا إليه من يغريه بهم. وكان النجاشي رجلاً عاقلاً أراد أن يتبين الأمر قبل أن يسلمهم، فاستدعاهم ليسألهم. فلما دخلوا عليه كان الذي يكلمه منهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه. فقال له النجاشي: «ما هذا الدين الذي أنتم عليه؟

(١) النور: ٥٥.

فارقتم دين قومكم ولم تدخلوا في يهودية ولا نصرانية. فقال له جعفر: أيها الملك كنا قوماً على الشرك، نعبد الأوثان ونأكل الميتة ونسيء الجوار، يستحل المحارم بعضنا من بعض في سفك الدماء وغيرها، لا نحل شيئاً ولا نحرمه، فبعث الله إلينا نبياً من أنفسنا نعرف وفاءه وصدقه وأمانته، فدعانا إلى أن نعبد الله وحده لا شريك له، ونصل الأرحام ونحمي الجوار، ونصلي لله عز وجل ونصوم له ولا نعبد غيره...» الأثر[1].

«وقبل معركة القادسية التي جرت بين المسلمين والفرس، بعث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه طائفة من أصحابه إلى كسرى يدعونه إلى الله قبل الوقعة. ولما استأذنوا على الملك يزدجرد قال لهم: ما الذي أقدمكم هذه البلاد؟ أظننتم أنا لما تشاغلنا بأنفسنا اجترأتم علينا؟ فقال له النعمان بن مقرن: إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولاً يدلنا على الخير ويأمرنا به، ويعرفنا الشر وينهانا عنه، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة. فلم يدع إلى ذلك قبيلة إلا صاروا فرقتين فرقة تقاربه وفرقة تباعده، ولا يدخل معه في دينه إلا الخواص. فمكث كذلك ما شاء الله

(١) السيرة النبوية لابن كثير (٢/٢٠).

أن يمكث، ثم أمر أن ينهد إلى من خالفه من العرب ويبدأ بهم، ففعل فدخلوا معه جميعاً على وجهين مكروه عليه فاغتبط، وطائع إياه فازداد. فعرفنا جميعاً فضل ما جاء به على الذي كنا عليه من العداوة والضيق. وأمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف، فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين الإسلام، حسّن الحسن وقبّح القبيح كله، فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه الجزية، فإن أبيتم فالمناجزة. وإن أجبتم إلى ديننا خلّفنا فيكم كتاب الله وأقمناكم عليه على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم. وإن أتيتمونا بالجزية قبلنا ومنعناكم وإلا قاتلناكم. قال فتكلم يزدجرد فقال: إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بين منكم، قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي ليكفوناكم، لا تغزوكم فارس ولا تطمعون أن تقوموا لهم. فإن كان عددكم كثر فلا يغرنكم منا، وإن كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملَّكنا عليكم ملكاً يرفق بكم. فأسكت القوم فقام المغيرة بن شعبة فقال: أيها الملك إن هؤلاء رؤوس العرب ووجوههم، وهم أشراف يستحيون من الأشراف، وإنما يكرم الأشراف الأشراف، ويعظم حقوق الأشراف

الأشراف، وليس كل ما أرسلوا له جمعوه لك، ولا كل ما تكلمت به أجابوك عليه، وقد أحسنوا ولا يحسن بمثلهم إلا ذلك، فجاوبني فأكون أنا الذي أبلغك ويشهدون على ذلك. إنك قد وصفتنا صفة لم تكن بها عالماً، فأما ما ذكرت من سوء الحال فما كان أسوأ حالاً منا. وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات ونرى ذلك طعامنا. وأما المنازل فإنما هي ظهر الأرض، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم. ديننا أن يقتل بعضنا بعضاً، وأن يبغي بعضنا على بعض، وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهي حية كراهية أن تأكل من طعامه.

وكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك، فبعث الله إلينا رجلاً معروفاً نعرف نسبه ونعرف وجهه ومولده...» الأثر[1].

وهكذا اكتملت الصورة الأولى، وجلس العرب يتربعون على أرض الجزيرة العربية وسواها من البلاد، ويتنعمون بالأمن ورغد العيش بعد أن كانوا أمة هلكى، وكل هذا ببركة اتباعهم للنبي محمد ﷺ.

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٤٢/٧).

ولنأت الآن إلى بيان الصورة الثانية في المثل:

فبعد أن وصل القوم المسافرون إلى الرياض المعشبة والحياض الرواء وتفيأوا ظلها ونعيمها، جاء الخبير بالطريق ذو الثياب الكريمة يستنهض همم القوم للوفاء بالشرط الذي أعطوه، وهو اتباعه في المرحلة المتبقية من الطريق، حتى يصل بهم إلى موطنهم الأصلي حيث الرياض والحياض تفوق بجمالها وبهائها ما هم فيه اليوم من رغد ونعيم.

فانقسم القوم عندها إلى فريقين، فريق لم يتردد طرفة عين في شد الرحال واتباع الخبير، فهم على ثقة بوعده واطمئنان إليه، كيف لا، وقد صدقهم الوعد أول مرة، فأنقذهم من هلاك محتم إلى جنات وأنهار ما كانوا يحلمون بها هم ولا آباؤهم، وهم اليوم يهدبون ثمارها ويتفيأون ظلالها.

وفريق آخر طاب له العيش في تلك الواحة، وعزّ عليه فراق الرياض المعشبة والحياض الرواء، واستثقل الرحيل إلى واحات بعيدة، وإن كانت أهنأ مما هو فيه وأمرأ، حتى هان عليه العهد ورضي بخفره وآثر العاجل على الآجل.

وهذه الصورة تعبير صادق عن حال العرب بعد

أن مكّن لهم في الأرض وفتحت عليهم خزائن الدنيا وخشي عليهم أن ينغمسوا فيها، قام النبي ﷺ يحذرهم فتنة الدنيا والاغترار بها، ويذكرهم أن النجاة منها مرهون باتباعه والتمسك بهديه، ويبشرهم على اتباعه بما أعد الله لهم في الآخرة من نعيم وجنات أعظم مما بين أيديهم من نعيم الحياة الدنيا وجناتها، وهي المرادة في المثل بقوله: «**فإن بين أيديكم رياضاً هي أعشب من هذه وحياضاً هي أروى من هذه**».

وقبل أن نصل إلى جواب أمته له ﷺ، علينا أن نورد بعض النصوص التي تشير إلى ما ذكرنا من بيان معنى المثل.

يقول تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾(١).

وعن عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه

(١) الحديد: ٢٠.

إلى البحرين يأتي بجزيتها، فقدم بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة، فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ. فلما صلى رسول الله ﷺ انصرف فتعرضوا له، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم ثم قال: «**أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين؟**» فقالوا: أجل يا رسول الله. فقال: «**أبشروا وأمّلوا ما يسركم فواللّه ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم**»[1].

والنصوص في التحذير من الدنيا والدعوة إلى الآخرة كثيرة ومتنوعة، ومع هذا، وبعد الخير الذي عاش فيه العرب ببركة هذا الدين، وما رأوه وعاينوه من دلائل النبوة، لم تجد دعوته لهم ولغيرهم في التخفف من الدنيا والإقبال على الآخرة آذاناً صاغية لدى جميعهم، بل انقسم الناس إلى طائفتين.

طائفة زهدت بما أعد الله لأوليائه في الآخرة، وأقبلت على متع الحياة الدنيا ترتع فيها، لا تقيم وزناً للقيم، ولا حرمة للدين.

---

(١) أخرجه البخاري في الجزية برقم (٢٩٨٨)، ومسلم في الزهد برقم (٢٩٦١).

وطائفة شمّرت عن سواعدها وعزمت على المضي في طريق النبي ﷺ، غير آبهة بما يعترضها من عقبات في أثناء الطريق، إذا ادلهمت أمامها الأيام والليالي، أو اشتدت وطأة الكفار عليها، استحضرت ما وعدها الله به من نعيم مقيم وقرة عين لا تنقطع، فهان عليها ما تكابده في طريقها.

والعجب اليوم من الطائفة الأولى التي آثرت الدنيا على الآخرة، أنها لم تقتصر على ما ارتكبته من نكول عن طريقه ﷺ، بل صارت تبرر نكولها بأنها تخشى في اتباع طريقه أن تتكالب عليها الأمم وتسلبها العز الذي تعيش فيه والأمن الذي تتقلب فيه. ونسي القوم أن الخير الذي ينعمون فيه إنما كان بفضله ﷺ بعد فضل الله، وأن الذي منحهم هذا الخير أول مرة بعد أن ذاقوا مرارة الحرمان هو وحده القادر على أن يديمه عليهم.

كما لم يدر هؤلاء أن هذا التبرير قد احتج به كفار قريش على النبي ﷺ فوبخهم الله به أشد توبيخ. قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾[1]، فذكر الله

(١) القصص: ٥٧.

تعالى أن كفار قريش برروا عدم اتباعهم للنبي ﷺ بالخوف من الاستئصال أو النفي من الأرض، فرد الله عليهم بأن الأمن الذي يتخوفون زواله إنما هو بيد الله، وأنه هو الذي آثرهم به دون سائر الناس إكراماً لبلده الحرام، أفيعقل منهم أن يظنوا بعد ذلك أن طاعتهم لله باتباع رسوله وتكريمه سوف تكون سبب زوال هذه النعمة عنهم، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾[1].

وأسوأ من هؤلاء من زعم أن تخلف العرب اليوم عن اللحاق بركب الحضارة إنما هو بسبب هذا الدين، فزينوا للناس التمسك بقوميتهم العربية مجردة عن أي دين، وروجوا لباطلهم بالتغني بأمجاد العرب. ولهؤلاء نقول: بأن الذين تتصنعون لهم وتتقربون إليهم بنكران هذا الدين من الغربيين وغيرهم، يعرفون أكثر منكم فضل هذا الدين على العرب، وأنهم لم ولن يكونوا شيئاً بدونه، ويتمنون لهم أن يخلعوا ربقة هذا الدين من أعناقهم، حتى يتسنى لهم السيطرة على بلادهم واستلاب خيراتهم.

---

(١) العنكبوت: ٦٧.

فالله نسأل أن يمن علينا بحب هذا الدين ومعرفة فضله، واتباع نبيه محمد ﷺ وتوقيره وتعظيمه، وأن يوردنا حوضه يوم القيامة، إنه خير مسؤول.